٦ ـ تفســـــير الأحلام

للدكتور سجموند فرويد

سلسلة محاضرات ألقاها في ڤيينا

للاستاذ محمد جمال الدين حسن

الرقابة في الأحلام :

وهناك طريقة ثالثة تستخدمها الرقابة في الأحلام لا يوجد لها مثيل في حالة الرقابة الصحفية . ولكني أستطيع أن أوضح لكم هذه الطريقة بالرجوع إلى الحلم الوحيد الذي استطعنا أن نحلله إلى الآن وهو الحلم الذي يدور حول « الثلاث تذاكر التي ثمنها فلورن ونصف » . رأينا أن المحتوى الباطن لهذا الحلم تبرز فيه صفة « التسرع والتبكير » . وقد كان معناه : « لقد كان من الحماقة أني تزوجت « مبكراً » » ، كما كان من الحماقة أن تحجز المقاعد « مقدما » وكما كان من الحماقة أيضاً أن « تتسرع » أخت زوجي بإضاعة نقودها كلها على قطعة من الحلى . » ولكن هذه الصفة الرئيسية لم يبد لها أثر مطلقاً في المحتوى الظاهر ، وإنما كان الحلم كله مركزاً في الذهاب إلى المسرح وأخذ التذاكر . وقد كان لإزاحة هذا التركيز وإعادة ترتيب العناصر من جديد أثره في انعدام الشبه بين المحتوى الظاهر والمحتوى الباطن للحلم بحيث لا يتسنى لأحد أن يشك مطلقاً في تستر أحدهما وراء الآخر . وهذه « الإزاحة » تعتبر من أهم الوسائل التي يستخدمها التحريف ، وهي السبب الذي يضفي على الحلم هذه الهالة من الغرابة التي تجعل الحالم نفسه يتردد في الاعتراف به على أنه إحدى بنات أفكاره .

وعلى هذا فالحذف والتحوير وإعادة ترتيب العناصر ، هذه كلها هي الأساليب التي تتخذها الرقابة في الأحلام وهي الوسائل التي تستخدم في التحريف . والرقابة نفسها هي المولد أو هي أحد المولدات التي ينشأ عنها التحريف . أما التحوير والتغيير في الأوضاع فتدخل عادة تحت عنوان « الإزاحة » .

ولننظر الآن إلى الرقابة في الأحلام من الوجهة الديناميكية بعد أن ألمعنا ببعض الملحوظات عن أوجه النشاط فيها . لعلكم لا يشط بكم الخيال فتصورون الرقيب لأنفسكم على هيئة قزم عبوس الوجه قابع في إحدى خلايا المخ حيث يقوم بتأدية أعباء وظيفته ، أو تتخيلون أن هناك « مركزاً عصبياً » تنبعث منه تأثيرات رقابية معرضة للزوال إذا زال هذا المركز أو أصابه عطب . ولكن يكفينا في الوقت الحاضر أن ننظر إلى الرقابة على أنها اصطلاح نافع يعبر عن علاقة ديناميكية ، على أن لا تعوقنا هذه النظرة عن البحث لمعرفة أي نوع من النزعات له هذا التأثير وأيها يخضع له ، كما أنه يجب علينا أن لا نعجب إذا اكتشفنا أننا ربما نكون قد تعرضنا للرقابة من غير أن نتعرف عليها . وهذا ما حدث فعلا . فأنتم تذكرون أننا أثناء قيامنا بتطبيق طريقة الترابط المطلق ، اكتشفنا أن هناك « مقاومة » ما تعترض الجهود التي نبذلها للنفاذ إلى المحتوى الباطن للحلم من خلال الظاهر . وقلنا إن هذه المقاومة تختلف من ناحية الشدة فتكون في بعض الأحيان ضعيفة جداً فلا تحتاج إلى مجهود كبير لتفسير الحلم وتكون في أحيان أخرى كبيرة جداً فتحتاج إلى سلسلة طويلة من الأفكار المترابطة و إلى التغلب على كثير من الاعتراضات التي تواجه هذه الأفكار . وهذه الظاهرة التي لاقتنا على شكل « مقاومة » أثناء التفسير نعود فنقابلها مرة أخرى على شكل « رقابة » في تكوين الحلم ؛ وما المقاومة في الواقع إلا الرقابة في شكل ملموس وهي تثبت لنا أن تأثير الرقابة لا ينعدم بعد القيام بعملية التحريف بل يظل قائماً كمنشأة دائمة تعمل على إبقاء التحريف على حالته الراهنة . وكما أن المقاومة تختلف في الشدة باختلاف عناصر الحلم ، فكذلك تختلف أيضاً درجة التحريف الذي ينشأ عن الرقابة . فالمقارنة بين المحتوى الظاهر والمحتوى الباطن تحرينا أن بعض العناصر الباطنة قد حذفت تماما من المحتوى الظاهر أو حورت تحويراً طفيفاً أو كبيراً ، بينما ظل البعض الآخر على حالته التي كان عليها من غير تبديل أو تغيير ، بل ربما ازداد وضوحاً عن الأول .

قلنا إننا نريد أن نبحث لمعرفة أي نوع من النزعات له هذا التأثير الرقابي وأيها يخضع له والجواب على هذا السؤال ، الذي

يعتبر جوهريا ، الوقوف على معنى الأحلام أو ربما الحياة البشرية بأسرها ، يكون من الأمور السهلة إذا فحصنا سلسلة الأحلام التي نجحنا في تفسيرها . فنرى من ذلك أن هـذه النزعات هي التي يحكم عليها الشخص الحالم في حالته اليقظة بأنها جزء من نفسه لا ينفصـل عنها . فمن المؤكد أن الشخص الذي لا يريد أن يعترف بالتفسير الصحيح لحلم من الأحلام التي رآها هو ، فإنما يفعل ذلك مدفوعاً بنفس العوامل التي تولد الرقابة وتتسبب في وقوع التحريف في الحلم حتى يصعب تفسيره . فالمرأة التي في الخمسين من عمرها مثلا قد أصابها الفزع والذهول لبشاعة الحلم الذي رأته رغما عن أنه لم يفسر لهـا ، فما بالكم إذاً لو كانت الدكتورة فون هج — هلموث قد أفضت إليها بطرف من معناه الذي لا يخفى ! هـذه المرأة أنكرت الحلم ولم تعترف به مدفوعة بنفس الأسباب التي أدت في الحلم إلى استبدال العبارات الجارحة بمقدمة غير واضحة .

أما النزعات التي تخضع لتأثير الرقابة ، فإننا إذا اختبرناها بنفس هـذا المقياس من النقد التحليلي فإننا نجد أنها عبارة عن نزعات لا تقبلها النفس لأنها تجرح شعور الإنسان من الوجهة الأخلاقية أو الإجتماعيـة ، وتدور في أغلب الأحيان حول أشياء لا يجشر المرء على التفكير فيها أو على الأقل يشعر باشمئزاز كبير إذا مرت بخاطره . وهذه الرغبات التي تؤثر فيها الرقابة فتبدو في الحلم بشكل محرف هي فوق كل شيء إظهار للأنانية الفظيعة التي لا حد لها . « فالذات » (Ego) يبدو أثرها دائمـا في كل حلم وهي تلعب فيه الدور الرئيسي وإن استطاعت في بعض الأحيان أن تتنكر تنكراً تاماً بالنسبة إلى المحتوى الظاهر للحلم . وهذه « الأنانية المقدسة » (Sacro Egoismo) للأحلام ليست في الواقع عديمة الصلة بالحالة العقلية التي تلزم للنوم أي قطع كل صلة بيننا وبين العالم الخارجي .

والذات التي تطرح عنها كل القيود الأخلاقية تحس أنها قد أصبحت على وفاق مع الرغبات التي يتطلبها الدافع الجنسي في الإنسان ، وهي الرغبات التي لا تقرها التربية الثقافية والتي تتنافى مع القيود التي تفرضها علينا الأخـلاق القويمة . فالطاقة الجنسية (Libido) لا يحول حائل بينها وبين الأشياء التي يقع عليها اختيارها لجلب اللذة ، بل هي في الحقيقة تفضل الأشـياء المحرمة كزوجة رجل آخر مثلا ، أو ما هو أشد حراماً كتلك الأشياء التي اتفق البشر جميعاً على تقديسها كالأم والأخت في حالة الرجل ، والأب والأخ في حالة المرأة . وهذه الرغبات التي نعتقد أنها غريبة عن الطبيعة البشرية تظهر قوتها في قدرتها على توليـد الأحلام . والبغض والكراهية أيضا من الأشـياء التي تنطلق في الحلم من غير قيد ، فالرغبة في الأخـذ بالثأر أو تمني الموت لمن هم أقرب الناس إلينا وأعزهم علينا في الحيـاة كالآباء والأبناء ، والأخوة والأخوات ، والأزواج والزوجات ليست قطعاً من الأشياء الغريبة غير المألوفة . هذه الرغبات التي تخضع للرقابة يبدو أنها تنبع من جحيم حقيقي فنحن عند ما نقف على معناها في أثناء اليقظة يبدو لنا أنه لا توجد رقابة كافية لردع هذه الرغبات . على أن الأحلام ليست مسئولة عن هـذا المحتوى الأثيم ، فأنتم بالتأكيد لم تنسوا بعد أن وظيفة الحلم التي لا ضرر منها بل النافعة هي المحافظة على النوم من عوامل القلق والإزعاج . فالإثم والفجور ليسا من طبيعة الحلم ، وأنتم في الواقع تعلمون أن هناك أحلاماً تعمل على تصريف رغبات مباحة ، أو حاجات جسمية ملحة . وصحيح أنه لا يوجد تحريف في هذه الأحلام ولـكن ذلك لأنها لا حاجة لهـا به فهي تستطيع أن تؤدي وظيفتها من غير أن تجرح الشعور الأخلاقي أو الثقافي للذات . تذكروا أيضا أن درجة التحريف تتناسب مع عاملين فهي من ناحية تزداد كلما كانت الرغبات التي تحت المراقبة أشد بشاعة ولـكنها كذلك تزداد كلما كانت مطالب الرقابة أشد صرامة . ولهذا فالرقابة الصارمة في الفتاة المحافظة التي تربت تربية قويمة قد تسبب تحريف أحلام نراها نحن رجال الطب ، تصريفاً مباحاً لرغبات جنسية لا ضرر منها ، وقد ترى الفتاة نفسها هذا الرأي عند ما يتقدم بها العمر عشر سنوات أخرى .

وفضلا عن ذلك فنحن لم نتقدم بعد في طريق النجاح لدرجة تجعلنا نستشيط غضباً للنتيجة التي وصلنا إليها من عملية التفسير فأغلب الظن أننا لم نفهمها بعـد كما يجب ، ولـكن يتحتم علينا قبل كل شيء أن نعمل على تحسين هذه النتيجة ضد الهجمات التي قد تتعرض لها ، فإنه لا يصعب عليكم أن تدركوا النقط الضعيفة التي فيها . فنحن بنينا طريقتنا في التفسـير على فروض فرضناها

من مبدأ الأمر وهي : أن الأحلام ليست خالية من المعنى ، وأن النظرية القائلة بأن العمليات العقلية قد تكون لاشعورية لبعض الوقت ، كما هو الحال في التنويم المغناطيسي ، يمكن تطبيقها أيضاً في حالة النوم الطبيعي ، وأخيراً أن من الممكن تحديد كل الأفكار المترابطة . فلو أننا تمكنا بمساعدة هذه الفروض من الوصول إلى نتيجة معقولة لحق لنا أن نستنتج من ذلك أننا كنا على صواب في فرضها . ولكن ما هو العمل والنتيجة التي وصلنا إليها كما ترون ؟ أظن أنه يبدو طبيعياً في هذه الحالة أن تقولوا : « هذه النتائج من التفاهة بمكان فهي مستحيلة الوقوع أو على أقل تقدير بعيدة الاحتمال ، فلا بد إذاً من وجود خطأ ما في الفروض التي فرضناها ؛ فإما أن الحلم ليس ظاهرة عقلية كما تخيلنا ، أو أنه لا توجد أفكار لاشعورية لا ندركها في حالتنا الطبيعية ، أو أن هناك عيباً ما في طريقة التفسير . أليس من الأفضل إذاً بل من الأسهل علينا أن نسلم بصحة هذا الافتراض بدلا من الموافقة على هذه النتائج البشعة التي تمجها النفس والتي نعترف بأننا وصلنا إليها عن طريق الفروض التي فرضناها ؟ » .

أجل يا سادة ، إني أوافقكم على أنه أفضل وأسهل ، ولكن ليس معنى ذلك أنه أصح . وعلى هذا فلننتظر قليلا ، فالمسألة لم تنضج بعد للحكم عليها ، وتعالوا بنا قبل كل شيء نقوى الاعتراضات التي تواجه طريقتنا في التفسير . فنحن لا نبالي كثيراً إذا كنتم لم تستسيغوا النتائج غير السارة التي وصلنا إليها ، وإنما المشكلة التي تواجهنا حقاً هي أن كثيراً من الحالمين لا يقرون بالنزعات والرغبات التي ننسبها إليهم عند ما نقوم بتفسير أحلامهم بل ينكرونها إنكاراً باتاً مبنياً على أساس متين . فقد يقول أحدهم : « ما هذا الذي تزعم ! أتريد أن تبرهن لي على أن ما أنفقته على تعليم أخي وعلى بائنة أختي كان على غير رغبة مني ؟ أيعقل هذا وأنا الذي قضيت عمري كله أجد وأعمل لأرعى إخوتي وأخواتي ولم يكن لي هم في الحياة إلا أن أقوم بواجبي نحوهم كأخيهم الأكبر حتى أفي بالعهد الذي أخذته على نفسي أمام والدتي وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة ؟ » وقد تقول امرأة : « ما هذا ؟ أتريد أن تفرض عليَّ أني أرغب في موت زوجي ؟ حقاً إن هذا كلام فارغ لا يصدق . فنحن لسنا سعداء في حياتنا الزوجية فحسب ، ولو أنك قد لا تصدق هذا ، ولكن بموته سأفقد كل شيء أمتلكه في هذه الحياة الدنيا . » أو قد يجيب شخص آخر بما يأتي : « أتريد أن تزعم أنني أضمر لأختي شعوراً بالرغبة الجنسية ؟ ولكن هذا مضحك حقاً فهي لا شيء بالمرة بالنسبة إليَّ ، فنحن لم نكن على وفاق في يوم من الأيام ، بل إنه قد مضت علينا سنوات لم نتبادل فيها كلمة واحدة » .

على أنه ما زال في إمكاننا أن لا نهتم كثيراً إذا لم يستطع هؤلاء الحالمون أن ينكروا أو يعترفوا بما ننسبه إليهم من نزعات ورغبات ، فقد نستطيع أن نقول . إن هذه هي بالذات الأشياء اللاشعورية التي لا يعلمون عنها شيئا . ولكنهم عند ما يحسون في أعماق قلوبهم بعكس الرغبة التي ننسبها إليهم بناء على التفسير ، وعند ما يبرهنون لنا بسيرتهم وسلوكهم الدائم في الحياة أن الرغبة العكسية هي الغالبة عليهم فمن المؤكد أننا لن نحير جواباً . أيكون الوقت قد حان إذاً لكي نطرح كل الجهود التي بذلناها في تفسير الأحلام كشيء أدى بنا إلى نتيجة تافهة (reductio ad absurdum) .

(يتبع) محمد عماد الدين حسن

مطبعة الرسالة

تقدم كتاب

أخبار مدينة الرسول

أو في كتاب عن المدينة المنورة

وآثارها وتاريخ عمارة المسجد النبوي

للامام الحافظ

محب الدين بن النجار

يطلب من دار الرسالة

ومكتبة الخانجي بشارع عبد العزيز

ومن جميع المكاتب الشهيرة

وثمنه عشرة قروش